بَابٌ
ما جَاءَ أَنَّ بَعْضَ هٰذِهِ الأمَّةِ يَعْبُدُ الأوْثَانَ

....

سبب مجيء المؤلف بهٰذا الباب لدحض حجة من يقول: إنَّ الشرك لا يمكن أن يقع في هٰذه الأمة، وأنكروا أن تكون عبادة القبور والأولياء من الشرك؛ لأنَّ هٰذه الأمة معصومة منه؛ لقوله ﷺ: **«إنَّ الشيطان أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب، ولٰكن في التحريش بينهم»**[١].

والجواب عن هٰذا سبق عند الكلام على المسألة الثامنة عشرة من مسائل باب من تبرك بشجر أو حجر ونحوهما.

قوله: «أنَّ بعض هٰذه الأمة»: أي: لا كلها؛ لأنَّ في هٰذه الأمة طائفة لا تزال منصورة على الحق إلى قيام الساعة، لٰكنه سيأتي في آخر الزمان ريح تقبض روح كل مسلم؛ فلا يبقى إلاّ شرار الناس.

وقوله: «تَعبد»؛ بفتح التاء، وفي بعض النسخ: **«يَعبد»**؛ بفتح الياء المثناة من تحت: فعلى قراءة **«يَعبد»** لا إشكال فيها؛ لأنَّ **«بعض»** مذكَّر. وعلى قراءة **«تعبد»**؛ فإنَّه داخل في قول ابن مالك:

وربــمــا أكــســب ثــان أولا تـأنـيـثـًا أنْ كـان لـحـذف مُـوهَـلَا

ومثَّلوا لذٰلك بقولهم: قطعت بعض أصابعه؛ فالتأنيث هنا من أجل أصابعه لا من أجل بعض. فإذا صحَّت النسخة **«تعبد»**؛ فهٰذا التأنيث اكتسبه المضاف من المضاف إليه.

---

(١) سبق (ص٢١٠).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ﴾(١).

قوله: «**الأوثان**»: جمع وثن، وهو: كل ما عُبِد من دون الله.

* * *

ذكر المؤلف في هٰذا الباب عدة آيات:

● **الآية الأولى: قوله تعالى:** ﴿أَلَمْ تَرَ﴾: الاستفهام هنا للتقرير والتعجيب، والرؤية بصرية بدليل أنَّها عُدِّيت بإلى، وإذا عُدِّيت بإلى صارت بمعنى النظر. والخطاب إمَّا للنبي ﷺ، أو لكل من يصحّ توجيه الخطاب إليه؛ أي: ألم تر أيها المُخاطَب؟

قوله: ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟﴾: أي: أُعطوا، ولم يعطوا كل الكتاب؛ لأنَّهم حرموا بسبب معصيتهم؛ فليس عندهم العلم الكامل بما في الكتاب.

قوله: ﴿نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ المنزَّل: والمراد بالكتاب: التوراة والإنجيل. وقد ذكروا لذٰلك مثلاً، وهو كعب بن الأشرف حين جاء إلى مكة، فاجتمع إليه المشركون، وقالوا: ما تقول في هٰذا الرجل (أي: النبي ﷺ) الذي سفَّه أحلامنا ورأى أنَّه خير منَّا؟ فقال لهم: أنتم خير من محمد، ولهٰذا جاء في آخر الآية: ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَـٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٥١].

قوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ﴾: أي: يصدِّقون بهما، ويقرونهما لا ينكرونهما، فإذا أقر الإنسان هٰذه الأوثان؛ فقد آمن بها. والجِبْت:

(١) سورة النساء: الآية ٥١.

وَقَولُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ﴾(١).

قيل: السحر، وقيل: هو الصنم، والأصح: أنَّه عام لكل صنم أو سحر أو كهانة أو ما أشبه ذلك.

والطاغوت: ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مُطاع. فالمعبود كالأصنام، والمتبوع كعلماء الضلال، والمطاع كالأمراء؛ فطاعتهم في تحريم ما أحل الله، أو تحليل ما حرَّم الله تعد من عبادتهم.

والمراد من كان راضيًا بعبادتهم إياه، أو يُقال: هو طاغوت باعتبار عابديه؛ لأنَّهم تجاوزوا به حده، حيث نزلوه فوق منزلته التي جعلها الله له، فتكون عبادتهم لهٰذا المعبود طغيانًا؛ لمجاوزتهم الحدَّ بذٰلك.

والطاغوت: مأخوذ من الطغيان؛ فكل شيء يتعدَّى به الإنسان حدَّه يعتبر طاغوتًا.

وجه المناسبة في الآية للباب لا يتبين إلاّ بالحديث، وهو: «**لتركبنَّ سُنن من كان قبلكم**»، فإذا كان الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت، وأن من هٰذه الأمة من يرتكب سنن من كان قبله يلزم من هذا أنَّ في هذه الأمة من يؤمن بالجبت والطاغوت؛ فتكون الآية مطابقة للترجمة تمامًا.

* * *

● **الآية الثانية: قوله تعالى**: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم﴾: الخطاب للنبي ﷺ ردًّا على هٰؤلاء اليهود الذين اتَّخذوا دين الإسلام هزوًا ولعبًا.

---

(١) سورة المائدة: الآية ٦٠.

....

وقوله: ﴿أُنَبِّئُكُم﴾: أي: أخبركم، والاستفهام هنا للتقرير والتشويق، أي: سأقرر عليكم هٰذا الخبر.

قوله: ﴿بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ﴾: شر: هنا اسم تفضيل، وأصلها أشر لٰكن حذفت الهمزة تخفيفًا لكثرة الاستعمال، ومثلها كلمة خير مخفَّفة من أخير، والناس مخفَّفة من الأناس، وكذا كلمة الله مخففة من الإلٰه.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ المشار إليه ما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه؛ فإنَّ اليهود يزعمون أنَّهم هم الذين على الحق، وأنهم خير من الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم وأصحابه، وأنَّ الرسول ﷺ وأصحابه ليسوا على الحق؛ فقال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم﴾.

قوله: ﴿مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ﴾: مثوبة: تمييز لشر؛ لأنَّ شر اسم تفضيل، وما جاء بعد أفعل التفضيل مبينًا له يكون منصوبًا على التمييز.

قال ابن مالك:

اسم بمعنى من مبين نكرة ... ينصب تمييزًا بما قد فسره

إلى أن قال:

والفاعل المعنى انصبن بأفعلا ... مفضلاً كأنت أعلى منزلا

والمثوبة: من ثاب يثوب إذا رجع، ويُطلق على الجزاء؛ أي: بشر من ذٰلك جزاء عند الله.

قوله: ﴿عِندَ اللَّهِ﴾: أي: في علمه وجزائه عقوبةً أو ثوابًا.

قوله: ﴿مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ﴾: من: اسم موصول خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هو من لعنه الله؛ لأنَّ الاستفهام انتهى عند قوله: ﴿مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ﴾، وجواب الاستفهام: ﴿مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ﴾. ولعنه؛ أي: طرده وأبعده عن رحمته.

....

قوله: ﴿وَغَضِبَ عَلَيۡهِ﴾: أي: أحلَّ عليه غضبه، والغضب: صفة من صفات الله الحقيقية تقتضي الانتقام من المغضوب عليه، ولا يصحّ تحريفه إلى معنى الانتقام، وقد سبق الكلام عليه (ص٤٢١).

والقاعدة العامة عند أهل السنة: أن آيات الصفات وأحاديثها تجرى على ظاهرها اللائق بالله ـ عز وجل ـ؛ فلا تجعل من جنس صفات المخلوقين، ولا تحرف فتنفى عن الله؛ فلا نغلو في الإثبات ولا في النفي.

قوله: ﴿وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ﴾: القِرَدَة: جمع قرد، وهو حيوان معروف أقرب ما يكون شبهًا بالإنسان، والخنازير: جمع خنزير، وهو ذلك الحيوان الخبيث المعروف الذي وصفه الله بأنّه رجس. والإشارة هنا إلى اليهود؛ فإنَّهم لُعِنُوا كما قال تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ...﴾ [المائدة: ٧٨] الآية. وجعلوا قردة بقوله تعالى: ﴿كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ [البقرة: ٦٥]، وغضب الله عليهم بقوله: ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٖۚ﴾ [البقرة: ٩٠].

قوله: ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ﴾: فيها قراءتان في ﴿عَبَدَ﴾ وفي ﴿ٱلطَّٰغُوتَۚ﴾:

الأولى: بضم الباء ﴿عَبُدَ﴾، وعليها تكسر التاء في ﴿ٱلطَّٰغُوتِ﴾؛ لأنه مجرور بالإضافة.

الثانية: بفتح الباء ﴿عَبَدَ﴾ على أنّه فعل ماض معطوف على قوله: ﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ صلة الموصول، أي: ومن عبد الطاغوت، ولم يعد ﴿من﴾ مع طول الفصل؛ لأنَّ هذا ينطبق على موصوف واحد، فلو أعيدت ﴿من﴾

وَقَولُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾[1].

لأوهم أنهم جماعة آخرون وهم جماعة واحدة؛ فعلى هٰذه القراءة يكون ﴿عَبَدَ﴾ فعلاً ماضيًا، والفاعل ضمير مستتر جوازًا تقديره هو يعود على «مَنْ» في قوله: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾. و﴿ٱلطَّٰغُوتَ﴾ بفتح التاء مفعولاً به. وبهٰذا نعرف اختلاف الفاعل في صلة الموصول وما عطف عليه؛ لأنَّ الفاعل في صلة الموصول هو ﴿ٱللَّهُ﴾، والفاعل في عبد يعود على «من».

وعلى كل حال؛ فالمراد بها عابد الطاغوت. فالفرق بين القراءتين بالباء فقط؛ فعلى قراءة الفعل مفتوحة، وعلى قراءة الاسم مضمومة. والطاغوت على قراءة الفعل في ﴿عَبَدَ﴾ تكون مفتوحة ﴿عَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾، وعلى قراءة الاسم تكون مكسورة بالإضافة ﴿عَبُدَ ٱلطَّٰغُوتِ﴾. وذكر في تركيب ﴿عَبَدَ﴾ مع ﴿ٱلطَّٰغُوتَ﴾ أربع وعشرون قراءة، ولٰكنها قراءات شاذَّة غير القراءتين السبعيتين ﴿عَبَدَ﴾ ﴿عَبُدَ﴾.

* * *

● **الآية الثالثة: قوله تعالى:** ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾: هٰذه الآية في سياق قصة أصحاب الكهف، وقصتهم عجيبة؛ كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾ [الكهف: ٩]، وهم فتية آمنوا بالله وكانوا في بلاد شرك، فخرجوا منها إلى الله ـ عز وجل ـ، فيسَّر الله لهم غارًا، فدخلوا فيه، وناموا فيه نومة طويلة بلغت ﴿ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا﴾ [الكهف: ٢٥] وهم نائمون لا يحتاجون إلى أكل وشرب، ومن حكمة الله أنَّ الله يقلِّبهم ذات

---

(١) سورة الكهف: الآية ٢١.

....

اليمين وذات الشمال حتى لا يترسَّب الدم في أحد الجانبين، ولما خرجوا بعثوا بأحدهم إلى المدينة ليشتري لهم طعامًا، وآخر الأمر أنَّ أهل المدينة اطَّلعوا على أمرهم، وقالوا: لا بد أن نبني على قبورهم مسجدًا.

وقوله: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ﴾: المراد بهم: الحكَّام في ذٰلك الوقت قالوا مقسمين مؤكدين: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا﴾، وبناء المساجد على القبور من وسائل الشرك كما سبق.

*** فوائد الآيات السابقة:**

من فوائد الآية الأولى ما يلي:

١ ـ أن من العجب أن يعطى الإنسان نصيبًا من الكتاب ثم يؤمن بالجبت والطاغوت.

٢ ـ أن العلم قد لا يعصم صاحبه من المعصية؛ لأن الذين أوتوا الكتاب آمنوا بالكفر، والذي يؤمن بالكفر يؤمن بما دونه من المعاصي.

٣ ـ وجوب إنكار الجبت والطاغوت؛ لأنَّ الله تعالى ساق الإيمان بهما مساق العجب والذم؛ فلا يجوز إقرار الجبت والطاغوت.

٤ ـ ما ساقها المؤلف من أجله أن من هٰذه الأمة من يؤمن بالجبت والطاغوت لقوله ﷺ: «**لتركبن سنن من كان قبلكم**»(١)، فإذا وجد في بني إسرائيل من يؤمن بالجبت والطاغوت؛ فإنه سيوجد في هٰذه الأمة أيضًا من يؤمن بالجبت والطاغوت.

*** ومن فوائد الآية الثانية ما يلي:**

١ ـ تقرير الخصم والاحتجاج عليه بما لا يستطيع إنكاره، بمعنى

(١) سبق (ص٢٠٢).

....

أنَّك تحتج على خصمك بأمر لا يستطيع إنكاره؛ فإنَّ اليهود يعرفون بأنَّ فيهم قومًا غضب الله عليهم ولعنهم وجعل منهم القردة والخنازير، فإذا كانوا يقرّون بذٰلك وهم يستهزئون بالمسلمين؛ فنقول لهم: أين محل الاستهزاء الذين حلَّت عليهم هٰذه العقوبات أم الذين سَلِمُوا منها؟

والجواب: الذين حلَّت بهم العقوبة أحق بالاستهزاء.

٢ ـ اختلاف الناس بالمنزلة عند الله؛ لقوله: ﴿بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾، ولا شك أنَّ الناس يختلفون بزيادة الإيمان ونقصه وما يترتب عليه من الجزاء.

٣ ـ سوء حال اليهود الذين حلَّت بهم هٰذه العقوبات من اللعن والغضب والمسخ وعبادة الطاغوت.

٤ ـ إثبات أفعال الله الاختيارية، وأنَّه سبحانه يفعل ما يشاء؛ لقوله: ﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾؛ فإنَّ اللعن من صفات الأفعال.

٥ ـ إثبات الغضب لله؛ لقوله: ﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾.

٦ ـ إثبات القدرة لله؛ لقوله: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ﴾.

وهل المراد بالقردة والخنازير هٰذه الموجودة؟

الجواب: لا، لما ثبت في «صحيح مسلم» عن النبي ﷺ: **«أنَّ كل أمة مسخت لا يبقى لها نسل»**[(١)]، ولأن القردة والخنازير كانت قبل ذٰلك، وعلى هٰذا؛ فليس هٰذا الموجود من القردة والخنازير هو بقية أولٰئك الممسوخين.

---

(١) من حديث ابن مسعود، رواه: مسلم (كتاب القدر، باب بيان أن الأرزاق والآجال... لا تزيد ولا تنقص عما سبق به القدر، ٤/ ٢٠٥١).

....

٧ ـ أنَّ العقوبات من جنس العمل؛ لأنَّ هٰؤلاء الذين مسخوا قردة، والقرد أشبه ما يكون شبهًا بالإنسان، فعلوا فعلاً ظاهره الإباحة والحل وهو محرم، وذٰلك أنَّه حرَّم عليهم الصيد يوم السبت ابتلاء من الله، فإذا جاء يوم السبت امتلأ البحر بالحيتان، وظهرت على سطح الماء، وفي غيره من الأيام تختفي ولا يأتي منها شيء، فلما طال عليهم الأمد صنعوا شباكًا؛ فصاروا ينصبونها في يوم الجمعة ويدعون الحيتان تدخل فيها يوم السبت، فإذا أتى يوم الأحد أخذوها، وهٰذه حيلة ظاهرها الحل، ولٰكن حقيقتها ومعناها الوقوع في الإثم تمامًا، ولهٰذا مُسخوا إلى حيوان يشبه الإنسان وليس بإنسان، وهو القرد، قال تعالى: ﴿كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ [البقرة: ٦٥]، وهو يفيد أنَّ الجزاء من جنس العمل، ويدلّ عليه صراحة قوله تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

٨ ـ أنَّ هٰؤلاء اليهود صاروا يعبدون الطاغوت؛ لقوله: ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾، ولا شك أنَّهم حتى الآن يعبدونه؛ لأنَّهم عبدوا الشيطان وأطاعوه وعصوا الله ورسوله.

وفي الآية نكتة نحوية في قوله: ﴿عَلَيْهِ﴾ و﴿منهم﴾ في قوله تعالى: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ﴾؛ فالضمير في ﴿لَّعَنَهُ﴾ الهاء، و﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ مفرد، و﴿منهم﴾ جمع، مع أن المرجع واحد، وهو: ﴿من﴾.

والجواب: أنَّه روعي في الإفراد اللفظ، وفي الجمع المعنى، وذٰلك أنَّ ﴿من﴾ اسم موصول صالحة للمفرد وغيره، قال ابن مالك:

ومن وما وأل تساوي ما ذكر

عن أَبي سَعِيدٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُم ....

لما ذكر الأسماء الموصولة من المفرد والمثنَّى والجمع من مذكر ومؤنَّث قال: ومن وما... إلخ.

وقال: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ﴾، ولم يقل: وجعلهم قردة؛ لأنَّ اللعن والغضب عام لهم جميعًا، والعقوبة بمسخهم إلى قردة وخنازير خاص ببعضهم، وليس شاملاً لبني إسرائيل.

*** ومن فوائد الآية الثالثة ما يلي:**

١ ـ ما تضمن سياق هٰذه الآية من القصة العجيبة في أصحاب الكهف وما تضمنته من الآيات الدَّالة على كمال قدرة الله وحكمته.

٢ ـ أنَّ من أسباب بناء المساجد على القبور الغلو في أصحاب القبور؛ لأنَّ الذين غلبوا على أمرهم بنوا عليهم المساجد؛ لأنَّهم صاروا عندهم محل الاحترام والإكرام فغلوا فيهم.

٣ ـ أنَّ الغلو في القبور وإن قلّ قد يؤدّي إلى ما هو أكبر منه، ولهٰذا قال النبي ﷺ لعلي حين بعثه: **«ألا تدع صورة إلاّ طمستها ولا قبرًا مشرفًا إلاّ سوّيته»**[1].

* * *

قوله في الحديث: «لتتبعنَّ»: اللام موطئة للقسم، والنون للتوكيد؛ فالكلام مُؤكَّد بثلاثة مُؤَكِّدات: القَسَم المقدر، واللام، والنون، والتقدير: والله لتتبعنَّ.

قوله: «سنن من كان قبلكم»: فيها روايتان: **«سَنن»** و**«سُنن»**. أما

(١) رواه: مسلم (كتاب الجنائز، باب الأمر بتسوية القبر، ٢/٦٦٦).

....

«سُنن»؛ بضم السين: جمع سُنَّة، وهي الطريقة. وأما «سَنن»؛ بالفتح: فهي مفرد بمعنى الطريق. وفَعَل تأتي مفردة مثل: فَنَنْ جمعها أفنان، وسبب جمعها أسباب.

وقوله: «من كان قبلكم»: أي: من الأمم.

وقوله: «لتتبعنَّ سنن من كان قبلكم» ليس على ظاهره، بل هو عام مخصوص؛ لأنَّنا لو أخذنا بظاهره كانت جميع هٰذه الأمة تتبع سنن من كان قبلها، لٰكننا نقول: إنَّه عامّ مخصوص؛ لأنَّ في هٰذه الأمة من لا يتبع تلك السنن كما أخبر النبي ﷺ لأنه لا تزال طائفة من هذه الأمة على الحق، وقد يقال: إنَّ الحديث على عمومه وأنَّه لا يلزم أن تتبع هٰذه الأمة الأمم السابقة في جميع سننها، بل بعض الأمة يتبعها في شيء وبعض الأمة يتبعها في شيء آخر، وحينئذ لا يقتضي خروج هٰذه الأمة من الإسلام، وهٰذا أولى لبقاء الحديث على عمومه، ومن المعلوم أنَّ منْ طُرِق من كان قبلنا ما لا يُخْرِج من الملَّة، مثل: أكل الربا، والحسد، والبغي، والكذب. ومنه ما يخرج من الملَّة: كعبادة الأوثان.

السُّنَنُ: هي الطرائق، وهي متنوعة، منها ما هو اعتداء على حق الخالق، ومنها ما هو اعتداء على حق المخلوق، ولنستعرض شيئًا من هٰذه السنن: فمن هٰذه السنن: عبادة القبور والصالحين؛ فإنَّها موجودة في الأمم السابقة وقد وجدت في هٰذه الأمة، قال تعالى عن قوم نوح: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣]. ومن ذٰلك: الغلو في الصالحين كما وجد في الأمم السابقة ووجد في هٰذه الأمة.

ومنها: دعاء غير الله، وقد وجد في هٰذه الأمة.

ومنها: بناء المساجد على القبور موجود في السابقين، وقد وجد في هٰذه الأمة.

....

ومنها: وصف الله بالنقائص والعيوب؛ فقد قالت اليهود: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤]، وقالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران: ١٨١]، وقالوا: إنَّ الله تعب من خلق السماوات والأرض، وقد وجد في هٰذه الأمة من قال بذٰلك أو أشد منه؛ فقد وجد من قال: ليس له يد، ومنهم من قال: لا يستطيع أن يفعل ما يريد فلم يستو على العرش، ولا ينزل إلى السماء الدنيا ولا يتكلم، بل وجد في هٰذه الأمة من يقول: بأنَّه ليس داخلاً في العالم، وليس خارجًا عنه ولا متَّصلاً به ولا منفصلاً عنه؛ فوصفوه بما لا يمكن وجوده، ومنهم من قال: لا تجوز الإشارة الحسيَّة إليه، ولا يفعل، ولا يغضب، ولا يرضى، ولا يحب، وهٰذا مذهب الأشاعرة.

ومنها: أكل السحت؛ فقد وجد في الأمم السابقة ووجد في هٰذه الأمة. ومنها: أكل الربا؛ فقد وجد في الأمم السابقة ووجد في هٰذه الأمة. ومنها: التحيل على محارم الله؛ فقد وجد في الأمم السابقة ووجد في هٰذه الأمة. ومنها: إقامة الحدود على الضعفاء ورفعها عن الشرفاء؛ فقد وجد في الأمم السابقة ووجد في هٰذه الأمة.

ومنها: تحريف كلام الله عن مواضعه لفظًا ومعنى؛ كاليهود حين قيل لهم: ﴿ ٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾ [البقرة: ٥٨]، فدخلوا على قفاهم، وقالوا: حنطة ولم يقولوا حطَّة، ووجد في هٰذه الأمة من فعل كذٰلك؛ فحرَّف لفظ الاستواء إلى الاستيلاء، قال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] وقالوا هم: الرحمٰن على العرش استولى.

قال ابن القيم: إنَّ اللام في استولى مزيدة زادها أهل التحريف كما زاد اليهود النون في (حطَّة) فقالوا: (حنطة).

....

نون اليهود ولام جهمي هما   في وحي رب العرش زائدتان
أمر اليهود بأن يقولوا حطة   فأبوا وقالوا حنطة لهوان
وكذلك الجهمي قيل له استوى   فأبى وزاد الحرف للنقصان

ووجد في الأمم السابقة من اتَّخذوا أحبارهم ورُهبانهم أربابًا من دون الله، ووجد في هٰذه الأمة من يُعارض قول النبي ﷺ بقول شيخه.

فإذا تأمَّلت كلام النبي ﷺ وجدته مطابقًا للواقع: «**لتتبعنَّ سنن من كان قبلكم**»، ولٰكن يبقى النظر: هل هٰذا الحديث للتحذير أو للإقرار؟

الجواب: لا شك أنَّه للتحذير وليس للإقرار؛ فلا يقول أحد: سأحسد وسآكل الربا، وسأعتدي على الخلق؛ لأنَّ الرسول ﷺ قال ذٰلك، فمن قال ذٰلك؛ فإننا نقول له: أخطأت؛ لأن قول النبي ﷺ لا شك أنَّه للتحذير، ولهٰذا قال الصحابة: اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟

ثم نقول لهم أيضًا: إنَّ الرسول ﷺ أخبر بأشياء ستقع، ومع ذٰلك أخبر بأنها حرام بنص القرآن. فمن ذٰلك أنه أخبر أن الرجل يكرم زوجته ويعق أمه، وأخبر أنَّ الإنسان يعصي أباه ويدني صديقه(١)، وهٰذا ليس بجائز بنص القرآن، لٰكن قصد التحذير من هٰذا العمل.

ووجد في الأمم السابقة من يقول للمؤمنين: إنَّ هٰؤلاء لضالون، ووجد في هٰذه الأمة من يقول للمؤمنين: إن هٰؤلاء لرجعيُّون. فالمعاصي لها أصل في الأمم على حسب ما سبق، ولٰكن من وفقه الله للهداية اهتدى.

والحاصل أنَّك لا تكاد تجد معصية في هٰذه الأمة إلا وجدت لها

(١) من حديث أبي هريرة، رواه: الترمذي في (الفتن، باب ما جاء في علامة حلول المسخ والخسف، ٦/ ٣٦٤)، وقال: «وهٰذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من هٰذا الوجه».

حَذْوَ القُذَّةِ بِالقُذَّةِ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ؛ لَدَخَلْتُمُوهُ». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! اليَهُودَ وَالنَّصَارَى؟ ....

أصلاً في الأمم السابقة. ولا تجد معصية في الأمم السابقة إلا وجدت لها وارثًا في هٰذه الأمَّة.

أما مناسبة الحديث للباب

فلأنَّه لمَّا عبدت الأمم السابقة الأصنام والأوثان؛ فسيكون في هٰذه الأمة من يعبد الأصنام والأوثان.

قوله: «حذو القذَّة بالقذَّة»: حَذْوَ بمعنى: محاذيًا، وهي منصوبة على الحال من فاعل تتبعن؛ أي: حال كونكم محاذين لهم حذو القذَّة بالقذَّة. والقُذَّة: هي ريشة السهم، والسهم له ريش لا بد أن تكون متساوية تمامًا، وإلا؛ صار الرمي به مختلاًّ.

قوله: «حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه»: هٰذه الجملة تأكيد منه ﷺ للمتابعة. وجحر الضب من أصغر الجحور، ولو دخلوا جحر أسد من باب أولى أن ندخله؛ فالنبي ﷺ قال ذٰلك على سبيل المبالغة؛ كقوله ﷺ: **«من اقتطع شبرًا من الأرض ظلمًا طوَّقه الله به يوم القيامة من سبع أرضين»**(١)، ومن اقتطع ذراعًا؛ فمن باب أولى.

قوله: «قالوا: اليهود والنصارى» يجوز فيها وجهان:

الأول: نصب اليهود والنصارى على أنَّه مفعول لفعل محذوف تقديره: أتعني اليهود والنصارى؟

(١) سبق (ص٨٧).

قَالَ: «فَمَنْ؟». أَخْرَجَاهُ(١).

الثاني: الرفع على أنَّه خبر لمبتدأ محذوف تقديره: أهم اليهود والنصارى؟

وعلى كل تقدير؛ فالجملة إنشائية لأنهم يسألون النبي ﷺ؛ فهي استفهامية، والاستفهام من باب الإنشاء. واليهود: أتباع موسى عليه الصلاة والسلام، وسمّوا يهودًا نسبة إلى يهوذا من أحفاد إسحاق، أو لأنَّهم هادوا إلى الله؛ أي: رجعوا إليه بالتوبة من عبادة العجل. والنصارى: هم أتباع عيسى عليه الصلاة والسلام، وسمّوا بذلك نسبة إلى بلدة تسمَّى الناصرة، وقيل: من النصرة؛ كما قال تعالى: ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الصف: ١٤].

قوله: «قال: فمن»: من هنا: اسم استفهام، والمراد به التقرير؛ أي: فمن أعني غير هؤلاء، أو فمن هم غير هؤلاء؟ فالصحابة رضي الله عنهم لمَّا حدَّثهم ﷺ بهذا الحديث كأنَّه حصل في نفوسهم بعض الغرابة، فلما سألوا قرَّر النبي ﷺ أنَّهم اليهود والنصارى.

*** من فوائد الحديث:**

١ ـ ما أراده المؤلف بسياقه، وهو أنَّ بعض هذه الأمة يعبد الأوثان؛ لأنَّه من سنن من قبلنا، وقد أخبر ﷺ أننا سنتبعهم.

٢ ـ ويستفاد أيضًا من فحوى الكلام التحذير من متابعة من قبلنا في معصية الله.

٣ ـ أنَّه ينبغي معرفة ما كان عليه من كان قبلنا مما يجب الحذر منه لنحذره، وغالب ذلك ـ ولله الحمد ـ موجود في القرآن والسنة.

---

(١) رواه: البخاري (كتاب الاعتصام، باب قول النبي ﷺ: «لتتبعن سنن من كان قبلكم»، ٣/ ٣٦٧)، ومسلم (كتاب العلم، باب اتباع سنن اليهود والنصارى، ٤/ ٢٠٥٤).

....

٤ ـ استعظام هٰذا الأمر عند الصحابة؛ لقولهم اليهود والنصارى، فإنَّ الاستفهام للاستعظام؛ أي: استعظام الأمر أن نتبع سنن من كان قبلنا بعد أن جاءنا الهدى مع النبي ﷺ.

٥ ـ أنَّه كلما طال العهد بين الإنسان وبين الرسالة؛ فإنَّه يكون أبعد من الحق؛ لأنَّه أَخْبرَ عن مستقبل ولم يُخبر عن الحاضر، ولأنَّ من سنن من قبلنا أنَّه لما طال عليهم الأمد قست قلوبهم، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦].

فإذا كان طول الأمد سببًا لقسوة القلب فيمن قبلنا؛ فسيكون فينا، ويشهد لذلك ما جاء في «البخاري» من حديث أنس رضي الله عنه؛ أنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**لا يأتي عليكم زمان إلاّ وما بعده أشر منه، حتى تلقوا ربكم**»[١]، ومن تتبع أحوال هٰذه الأمة وجد الأمر كذٰلك، لٰكن يجب أن نعرف الفرق بين الجملة والأفراد؛ فحديث أنس رضي الله عنه حديث صحيح سندًا ومتنًا؛ فالمتن ليس فيه شذوذ، والسند في «البخاري»، والمراد به من حيث الجملة، ولذٰلك يوجد في أتباع التابعين من هو خير من كثير من التابعين؛ فلا تيأسوا، فتقولوا: إذًا لا يمكن أن يوجد في زماننا هٰذا مثل من سبق؛ لأنَّنا نقول: إنَّ مثل هٰذا الحديث يراد به الجملة، وإذا شئتم أن يتَّضح الأمر؛ فانظروا إلى جنس الرجال وجنس النساء؛ أيهما خير؟

(١) في (كتاب الفتن، باب لا يأتي زمان إلا الذي بعده شر منه، ٤/ ٣١٥).

....

الجواب: جنس الرجال خير، قال تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، لكن يوجد في النساء من هي خير من كثير من الرجال؛ فيجب أن نعرف الفرق بين الجملة والأفراد.

فإذا نظرنا إلى مجموع القرن كله نجد أن ما بعد القرن شر منه، لا باعتبار الأفراد ولا باعتبار مكان دون مكان؛ فقد تكون أمة في بعض الجهات يرتفع الناس فيها من حسن إلى أحسن، كما لو نشأ فيها علماء نفع الله بهم؛ فإنّهم يكونون أحسن ممن سبقهم. أمّا الصحابة؛ فلا أحد يساويهم في فضل الصحبة، حتى أفرادهم لا يمكن لأحد من التابعين أن يساويهم فيها مهما بلغ من الفضل؛ لأنّه لم يدرك الصحبة.

مسألة: ما هي الحكمة من ابتلاء الأمة بهٰذا الأمر: «**لتتبعن سنن...**» إلخ، وأن يكون فيها من كل مساوئ من سبقها؟

الجواب: الحكمة ليتبين بذٰلك كمال الدين؛ فإنَّ الدين يعارض كل هٰذه الأخلاق، فإذا كان يُعارضها دلّ هٰذا على أنَّ كل نقص في الأمم السابقة، فإنَّ هٰذه الشريعة جاءت بتكميله؛ لأنَّ الأشياء لا تتبيَّن إلاّ بضدّها؛ كما قيل: وبضدها تتبيَّن الأشياء.

* **(تنبيه)**:

قوله: «حذو القذة بالقذة»(١) لم أجده في مظانه في «الصحيحين»؛ فليحرر.

* * *

---

(١) جملة: «حذو القذة بالقذة» ليست في «الصحيحين»، وهي في «المسند» (٤/ ١٢٥) من حديث شداد بن أوس بلفظ: «ليحملن شرار هٰذه الأمة على سنن الذين خلوا من قبلكم أهل الكتاب حذو القذة بالقذة». الناشر.

ولِمُسْلِم[١] عَنْ ثَوْبَانَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِي الأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا**، ....

قوله: «زوى لي»: بمعنى جمع وضم؛ أي: جمع له الأرض وضمها.

قوله: «فرأيت»: أي: بعيني؛ فهي رؤية عينية، ويحتمل أن تكون رؤية منامية.

قوله: «مشارقها ومغاربها»: وهٰذا ليس على الله بعزيز؛ لأنَّه على كل شيء قدير، فمن قدرته أن يجمع الأرض حتى يشاهد النبي ﷺ ما سيبلغ ملك أمَّته منها.

وهل المراد بالزوي هنا أنَّ الأرض جمعت، أو أنَّ الرسول ﷺ قُوِّي نظره حتى رأى البعيد؟ الأقرب إلى ظاهر اللفظ: أنَّ الأرض جمعت، لا أن بصره قوي حتى رأى البعيد.

وقال بعض العلماء: المراد قوة بصر النبي ﷺ: أي أن الله أعطاه قوة بصر حتى أبصر مشارق الأرض ومغاربها، لٰكن الأقرب الأول، ونحن إذا أردنا تقريب هٰذا الأمر نجد أن صورة الكرة الأرضية الآن مجموعة يشاهد الإنسان فيها مشارق الأرض ومغاربها؛ فالله على كل شيء قدير؛ فهو قادر على أن يجمع له ﷺ الأرض حتى تكون صغيرة فيدركها من مشارقها إلى مغاربها.

*** اعتراض وجوابه:**

فإن قيل: هٰذا إن حمل على الواقع؛ فليس بموافق للواقع؛ لأنَّه لو

---

(١) في (كتاب الفتن، باب هلاك هٰذه الأمة بعضهم ببعض، ٤/ ٢٢١٥).

وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا، وَأُعْطِيتُ الكَنْزَيْنِ: الأَحْمَرَ وَالأَبْيَضَ، ....

حصرت الأرض بحيث يدركها بصر النبي ﷺ المجرد؛ فأين يذهب الناس والبحار والجبال والصحارى؟

الجواب: بأنَّ هٰذا من الأمور الغيبية التي لا يجوز أن تورد عليها كيف ولِمَ، بل نقول: إنَّ الله على كل شيء قدير؛ إذ قوة الله ـ سبحانه ـ أعظم من قوتنا وأعظم من أن نحيط بها، ولهٰذا أخبر النبي ﷺ أنَّ الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم(١)؛ فلا يجوز أن نقول: كيف يجري مجرى الدم؟ فالله أعلم بذٰلك.

وهٰذه المسائل التي لا ندركها يجب التسليم المحض لها، ولهٰذا نقول في باب الأسماء والصفات: تجرى على ظاهرها مع التنزيه عن التكييف والتمثيل، وهٰذا ما اتفق عليه أهل السنة والجماعة.

وقوله: «فرأيت مشارقها ومغاربها»: أي: أماكن الشرق والغرب منها.

قوله: «وإنَّ أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها»: والمراد: أمة الإجابة التي آمنت بالرسول ﷺ سيبلغ ملكها ما زوي للرسول ﷺ منها، وهٰذا هو الواقع؛ فإنَّ ملك هٰذه الأمة اتَّسع من المشرق ومن المغرب اتِّساعًا بالغًا، لٰكنه من الشمال والجنوب أقل بكثير، والأمة الإسلامية وصلت من المشرق إلى السِند والهند وما وراء ذٰلك، ومن المغرب إلى ما وراء المحيط، وهٰذا يحقق ما رآه النبي ﷺ.

قوله: «وأعطيت الكنزين: الأحمر والأبيض»: الذي أعطاه هو الله.

---

(١) من حديث صفية، رواه: البخاري (كتاب الاعتكاف، باب زيارة المرأة زوجها في اعتكافه، ٢/ ٢٦٨)، ومسلم (كتاب السلام، باب يستحب لمن رؤي خاليًا بامرأة...، رقم ٢١٧٥).

وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لأُمَّتِي أَنْ لاَ يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ بِعَامَّةٍ، وَأَنْ لاَ يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ، فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، ....

والكنزان: هما الذهب والفضة كنوز كسرى وقيصر؛ فالذهب عند قيصر، والفضة عند كسرى، وكل منهما عنده ذهب وفضة، لٰكن الأغلب على كنوز قيصر الذهب، وعلى كنوز كسرى الفضة.

وقوله: «أعطيت»: هل النبي ﷺ أعطيها في حياته، أم بعد موته؟

الجواب: بعد موته أعطيت أمته ذٰلك، لٰكن ما أعطيت أمته؛ فهو كالمعطى له؛ لأنَّ امتداد ملك الأمة لا لأنَّها أمة عربية كما يقوله الجهّال، بل لأنَّها أمة إسلامية أخذت بما كان عليه الرسول ﷺ.

قوله: «وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة بعامة»: هٰكذا في الأصل: **«بعامة»**، والمعنى بمهلكة عامة، وفي رواية في بعض النسخ: **«بسنة عامة»**.

السنة: الجدب والقحط، وهو يهلك ويدمر، قال ﷺ: **«اللهم! اجعلها عليهم سنين كسني يوسف»**[1]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٠]، ويحتمل أن يكون المعنى بعام واحد؛ فتكون الباء للظرفية. وعامة؛ أي: عمومًا تعمهم، هٰذه دعوة.

قوله: «وأنْ لا يسلّط عليهم عدوًا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم»: أي: لا يُسلط عليهم عدوًا، والعدو: ضد الولي، وهو: المُعادي المُبْغِض الحاقد، وأعداء المسلمين هنا: هم الكفار، ولهٰذا قال: **«من سوى أنفسهم»**. ومعنى: **«يستبيح»**: يستحلّ، والبيضة: ما يجعل على الرأس وقاية من السهام. والمراد: يظهر عليهم ويغلبهم.

---

(١) من حديث ابن مسعود، رواه: البخاري (كتاب التفسير، باب **﴿يغشى الناس هٰذا عذاب أليم﴾**، ٣/ ٢٨٩)، ومسلم (كتاب صفات المنافقين، باب الدخان، ٤/ ٢١٥٥).

وَإِنَّ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ! إِنِّي إِذا قَضَيْتُ قَضَاءَ؛ فَإِنَّهُ لاَ يُرَدُّ، ....

قوله: «إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد»: اعلم أن قضاء الله نوعان:

١ ـ قضاء شرعي قد يُرد؛ فقد يريده الله ولا يقبلونه.

٢ ـ قضاء كوني لا يرد، ولا بد أن ينفذ.

وكلا القضاءين قضاء بالحق، وقد جمعهما قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقۡضِى بِٱلۡحَقِّۖ﴾ [غافر: ٢٠]. ومثال القضاء الشرعي: قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]؛ لأنه لو كان كونيًا؛ لكان كل الناس لا يعبدون إلاّ الله. ومثال القضاء الكوني: قوله تعالى: ﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَتُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَّتَيۡنِ وَلَتَعۡلُنَّ عُلُوّٗا كَبِيرٗا﴾ [الإسراء: ٤]؛ لأنَّ الله تعالى لا يقضي شرعًا بالفساد، لكنه يقضي به كونًا وإن كان يكرهه سبحانه؛ فإنَّ الله لا يحب الفساد ولا المفسدين، لكنه يقضي بذلك لحكمة بالغة، كما قَسَّم خلقه إلى مؤمن وكافر؛ لما يترتَّب على ذلك من المصالح العظيمة.

والمراد بالقضاء في هذا الحديث: القضاء الكوني؛ فلا أحد يستطيع ردّه مهما كان من الكفر والفسوق؛ فقضاء الله نافذ على أكبر الناس عتوًّا واستكبارًا، فقد نفذ على فرعون وأُغرق بالماء الذي كان يفتخر به، وعلى طواغيت بني آدم فأهلكهم الله ودمَّرهم.

وفي قوله: «إذا قضيت قضاء؛ فإنَّه لا يُرد» من كمال سلطان الله وقدرته وربوبيَّته ما هو ظاهر؛ لأنَّه ما من مَلك سوى الله إلاّ يمكن أن يرد ما قضى به. أما قضاء الله فلا يمكن رده.

واعلم أنَّ قضاء الله الكوني (كمشيئته لا يكون إلا لحكمة كقضائه الشرعي) فهو لا يقضي قضاءً إلاّ والحكمة تقتضيه، كما لا يشاء شيئًا إلا

....

والحكمة تقتضيه، ويدلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠]؛ فيتبيَّن أنَّه لا يشاء شيئًا إلاَّ عن علم وحكمة، وليس لمجرّد المشيئة.

خلافًا لمن أنكر حكمة الله من الجهمية وغيرهم، فقالوا: إنَّه لا يفعل الأشياء إلاَّ لمجرد المشيئة، فجعلوا على زعمهم المخلوقين أكمل تصرُّفًا من الله؛ لأنَّ كل عاقل من المخلوقين لا يتصرَّف إلا لحكمة، ولهٰذا كان الذي يتصرَّف بسفه يحجر عليه، قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾ [النساء: ٥].

فنحن نقول: إنَّ الله ـ جل وعلا ـ لا يفعل شيئًا ولا يحكم بشيء إلاَّ لحكمة، ولٰكن هل يلزم من الحكمة أن نحيط بها علمًا؟

الجواب: لا يلزم؛ لأنَّنا أقصر من أن نحيط علمًا بِحِكَم الله كلها، صحيح أنَّ بعض الأشياء نعرف حكمتها، لٰكن بعض الأشياء تعجز العقول عن إدراكها.

والمقصود من قوله: «**إذا قضيت قضاءً؛ فإنَّه لا يُرد**» بيان أن من الأشياء التي سألها النبي ﷺ ما لم يُعطها؛ لأنَّ الله قضى بعلمه وحكمته ذٰلك، ولا يمكن أن يُرَدّ ما قضاه الله ـ عز وجل ـ والقضاء قد يتوقف على الدعاء، بل إن كل القضاء أو أكثر القضاء له أسباب؛ إما معلومة أو مجهولة فدخول الجنة لا يمكن إلا بسبب يترتَّب دخول الجنة عليه، وهو الإيمان والعمل الصالح.

كذٰلك حصول المطلوب، قد يكون الله ـ عز وجل ـ منعه حتى نسأل، لٰكن من الأشياء ما لا تقتضي الحكمة وجوده، وحينئذ يجازى الداعي بما هو أكمل، أو يؤخر له ويدخر له عند الله ـ عز وجل ـ، أو

وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لأُمَّتِكَ أَنْ لاَ أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ بِعَامَّةٍ، وَأَنْ لاَ أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُم، وَلَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا، حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضاً، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضاً».

يصرف عنه من السوء ما هو أعظم، والدعاء إذا تمت فيه شروط القبول ولم يُجَب؛ فإننا نجزم بأنَّه ادُّخِر له.

قوله: «وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة بعامة» هٰذه واحدة.

والثانية: قوله: **«أن لا أسلّط عليهم عدوًّا من سوى أنفسهم، فيستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضًا ويسبي بعضهم بعضًا»**. وهٰذه الإجابة قُيدت بقوله: **«حتى يكون بعضهم يهلك بعضًا ويسبي بعضهم بعضًا»** إذا وقع ذٰلك منهم؛ فقد يُسلّط عليهم عدوًّا من سوى أنفسهم، فيستبيح بيضتهم؛ فكأنّ إجابة الله لرسوله ﷺ في الجملة الأولى بدون استثناء، وفي الجملة الثانية باستثناء **«حتى يكون بعضهم. . .»**. وهٰذه هي الحكمة من تقديم قوله: **«إذا قضيت قضاءً؛ فإنَّه لا يُرد»**، فصارت إجابة الله لرسوله ﷺ مقيَّدة.

ومن نعمة الله أنَّ هٰذه الأمة لن تهلك بسنة بعامة أبدًا؛ فكل من يدين بدين الرسول ﷺ؛ فإنَّه لن يهلك، وإن هلك قوم في جهة بسنة؛ فإنَّه لا يهلك الآخرون. فإذا صار بعضهم يقتل بعضًا ويسبي بعضهم بعضًا؛ فإنَّه يُسلط عليهم عدوًّا من سوى أنفسهم، وهٰذا هو الواقع؛ فالأمة الإسلامية حين كانت أمة واحدة عونًا في الحق ضد الباطل كانت أمة مهيبة، ولمَّا تفرقت وصار بعضهم يهلك بعضًا ويسبي بعضهم بعضًا؛ سلَّط الله عليهم

وَرَوَاهُ الْبُرْقَانِي فِي «صَحِيحِهِ»، وَزَادَ: «**وَإِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الأَئِمَّةَ الْمُضِلِّينَ**، ....

عدوًا من سوى أنفسهم، وأعظم من سُلِّط عليهم فيما أعلم التتار، فقد سلطوا على المسلمين تسليطًا لا نظير له؛ فيقال: إنهم قتلوا في بغداد وحدها أكثر من خمسمائة عالم في يوم واحد، وهٰذا شيء عظيم، وقتلوا الخليفة، وجعلوا الكتب الإسلامية جسرًا على نهر دجلة يطؤونها بأقدامهم ويفسدونها، وكانوا يأتون إلى الحوامل ويبقرون بطونهن ويخرجون أولادهن يتحركون أمامهم فيقتلونهم، وهي حية تشاهد ثم تموت.

قال ابن الأثير في «الكامل»: «لقد بقيت عدة سنين معرضًا عن ذكر هٰذه الحادثة استعظامًا لها كارهًا لذكرها فأنا أقدم رجلاً وأوخر أخرى، فمن الذي يسهل عليه نعي الإسلام والمسلمين؟! ومن الذي يهون عليه ذكر ذٰلك؟! فيا ليت أمي لم تلدني! ويا ليتني مت قبل هٰذا وكنت نسيًا منسيًا! إلا أني حثني جماعة من الأصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف، ثم رأيت أن ذٰلك لا يجدي...»، وذكر كلامًا طويلاً ووقائع مفجعة، ومن أراد مزيدًا من ذٰلك؛ فليرجع إلى حوادث سنة ٦١٧ من الكتاب المذكور.

وفي الحديث دليل على تحريم القتال بين المسلمين، وإهلاك بعضهم بعضًا، وسبي بعضهم بعضًا، وأنَّه يجب أن يكونوا أمة واحدة حتى تبقى هيبتهم بين الناس وتخشاهم الأمم.

قوله: «إنَّما أخاف على أمتي الأئمة المضلين»: بيَّن الرسول ﷺ أنَّه لا يخاف على الأمة إلاَّ الأئمَّة المضلين. والأئمَّة: جمع إمام، والإمام قد يكون إمامًا في الخير أو الشر، قال تعالى في أئمة الخير: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].